زكرياء بوغرارة

الأكف الممزقة

تقديم الشيخ ياسر السري

مؤسسة واإسلاماه لإعلام

الكتاب   الأكف الممزقة

الصنف   مجموعة قصصية

المؤلف زكرياء بوغرارة

الطبعة الأولى الإلكترونية

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الأكف الممزقة

يقولون لي فيكَ انقباضٌ وإنما
رأوا رجلاً عن موقفِ الذلِّ أحجما

كم طالبٍ ديني بنعماه لم يَصِلِ
إليه وإن كَانَ الرَّئيسَ المُعظَّما

وكم نعمة كانت على الحُرِّ نقمَةً
وكم مغنمٍ يَعتَدّه الحرُّ مَغرَما

مقدمة

الشيخ ياسر السري

مدير المرصد الإعلامي الإسلامي بلندن

الأكف الممزقة والأطياف الثلاثة وأطياف هائمة وملح الأرض من أدب السجون الذي هو نوع من أنواع الأدب معني بتصوير الحياة خلف القضبان واسوار السجون والمعتقلات، يناقش الظلم الذي يتعرض له السجناء والمعتقلين، والأسباب التي أودت بهم إلى السجن، حيث يقوم السجناء أنفسهم بتدوين يومياتهم وتوثيق كل ما مرّوا به من أحداث بشعة داخل السجن.

هو الأدب الانساني النضالي الذي ولد في عتمة وظلام الأقبية والزنازين وخلف القضبان الحديدية بالسجون والمعتقلات المغربية، وخرج من رحم الوجع اليومي والمعاناة النفسية والقهر الذاتي ، والمعبّر عن مرارة التعذيب وآلام التنكيل وهموم الأسير وتوقه لنور الحرية وخيوط الشمس.

ففي جحيم السجن ودياجير الظلام الدامس، كان السجين زكرياء بوغرارة يمتشق قلمه ليحاكي واقعه وحياته المأساوية ويغمسه في الوجدان ليصور تجربة الأسر والمعاناة اليومية، ويسطر ملاحم الصمود والتحدي والبطولة ومعارك الأمعاء الخاوية، في نصوص لا أصدق ولا أعذب ولا أجمل منها.

وأينما كان العذاب والتنكيل بالنفس البشرية بأقسى أنواع الألم خرج التعبير عن النفس والمشاعر في أبهى وأصدق صوره في الأدب، ليكون توثيقًا تاريخياً لمعاناة السجناء والمعتقلين، نتيجة أفعال حيوانية وقمعية للسيطرة على السجناء والمعتقلين ونزع الاعترافات منهم قسرياً حتى لو لم توجد جريمة يُدانون بها فعلياً.

ويتميز أدب السجون هذا الأدب الاعتقالي بصدق التجربة وغناها، وبالعفوية والرمزية الشفافة والصور الايحائية ، وسلاسة اللغة وطلاوة التعبير.

لندن في 20 نوفنبر 2018

ظل الذاكرة

مقدمة بقلم

زكرياء بوغرارة

البوح بما يعتمل ويمور في الصدر داخل العتمة قاس ومرير إنه شعلة نار ..
مخاضها عسير وولادتها كوهج الجمرات هي مزيج من النفحات واللفحات
بتعبير أحد الادباء {{ هي شذرات ألم..تداعب القهر كما يداعب الجلاد لياليه
والنتيجة في آخر النفق المظلم المدلهم صبح قادم لامحال }}
كانت بداية البوح في العتمة نفسها وفي أتونها الرهيبة.. صار البوح حكاية ثم
قصصا من غصص حرار.. قبل أن تنبثق في مخيالي تلك الصور والمشاهد
وتستعيد ذكريات ما جرى .. كانت إرهاصاتٌ و موجات ومشاهدات ثابتة
وعابرة
تصف لحظات التوجع الإنساني... وهي في ذروة الانصهار..

كان لابد لي أن أقترف الكتابة التي جّرمت من أجلها حتى في السجن.. كنت لفترة ما ممنوعا من الأوراق والاقلام... وان كتبت ترامت ايدي لجلاوزة لاوراقي تصادرها وتعبث بها وتكتم أنفاسها وتمزق اجنحتها حتى لاتطير بعيدا.. لتصل الى ما وراء العتمة

لاضير أن أعود لألعب بالقلم على الأوراق الصامتة التي أدمنت صمتا كصمتي ... في مربع العتمة القاهرة... ال ى ان انتفضت حية بحبري الأسود...

تلك العتمة القاهرة ذات الألوان السبعة الهائلة

الابواب كانت سبعة أبواب للعتمة ,, وانا اغاذر العتمة عددت أبوابها وجدتها قد صارات اثنتا عشرة بابا من حديد ونار...

رغم اقهر رفرفت اوراقي خارج العتمة ثم نشرت وانا لا أزال ساكن العتمة..

عندما قرات حروفي ضمائر حية .. نثرت لي بعض حروفها

{{يا صديقي...

للحزن هنا طعم آخر وللحرف الجميل سلطته ولك تقديري }}

في الظلام

هناك فقط يمكن أن يكتب المرء عن الحزن والوجع فيصير ذاك الحزن المسكون قهرا وقمعا وعنتا ادبا جميلا... لأنه يقرأ بعيون من لم يلامس العتمة....

انه الحزن جميلا ام قميئا ...

فما بالك بالعتمة ذات الأحزان والجدران...

كتبت شذرات طفيفة مما جرى وما هو كائن بين دفتي مجموعتي القصصية الموسومة

{{ الأكف الممزقة}}

كتبت لأتحرر من بعض سطوة العتمة.. وكتبت أيضا حتى أعري ثنائية {{الضحية والجلاد}}

{{سيظل الجلاد رمزا لألم والأسى طالما هناك استبداد وفساد }}

رسالة أخرى ذات سطر يتيم كانت بوحا من رجع صدى مجموعتي القصصية كتبه قلم حر

جاء فيه...

{{لقد ازف ميعاد صبح لايزول لانه صبح الحرية التي اشرقت بنور ربها}

الحرية التي ظلت أملا لا تزال غائبة عن سمائنا حتى تصير عملا يرى ويحس ويلمس والا فهي أكذوبة الكاذبين.....

عشقت كل حرف كتبته وانبثق من اعماقي وكم كانت فرحتي غامرة بحجم التفاعل معها عندما كانت تصلني وانا ساكن العتمة ممن عانق بعض حروفي وحكاياتي كهاته الشهادة التي اعتز بها من بين الاقلام الحرة التي كتبت لي بعض فيض حروفها ذات سجن وشجن

{{أيها النبيل سيظل الحزن يسكننا إلى ان ننطلق في الافق البعيد بعيدا عن عيونهم واياديهم وقفازاتهم....

وهل باتت أوطاننا إلا معتقلات فجةّ!

سننسى أحلامنا خارج رؤوسنا

ونترك الرأي

والكلام

سنمارس الصمت حتى يموت جميع المخبرين

والحكام

والاوطان

أوجعني نصك حد البكاء}}

ثم هذا الفيض من تنبع طهر الكلمات

{{ذات حزن

صار الوطن وجع

كنت هنا أقرأ تساؤلات محب

فمتى تغادرنا معتقلات الظلام متى

وبدا وجه البؤس فيك ياوطني؟؟؟

سترحل هذه المعتقلات بعد أن خيمت في عراء مشاعرنا

سيأتي الصبح

أليس الصبح بقريب

من يكتب للأمل ...لايخشى الظلام}}
ثم فيض آخر يعانق عتمتي فينبثق حروفا من نبع العواطف
{{حرف جريء
صرخة مدوية
و قلب يصر على الوفاء و التمسك بالحق
نص بديع بلغته
عميق في معانيه}}

ثم اكتب و اكتب وقبل ان أغاذر العتمة أنهيت مجموعتي القصصية الرابعة...
وهذه أول غيثها المبارك..
انما هي حروفنا تكتب آلامنا

وما إستكن في الضمير ونحن خلف عتمة اوجاعنا السحيقة
ومن قلم حر وصلتني الكلمات النبيلة

{{صرخة قوية
انطلقت من عمق الوجع

يا الله ما أوجع ما كتبت من مكابدة وعذاب
تحت سوط الجلاد الذي لا يرحم
مكتوب على كل وطني صادق أن يسجن داخل
زنازين المجرمين المرتزقة}}

ثم توالت مشاعر الطهر من بنع كلمات تفاعلت مع ما تسرب من كتاباتي
عن ادب السجون من عمق السجون

{{قرأت حرفا ينزف دمعا وحسرة على وطن
تكالبت عليه الجراح والمآسي والقهر...

و القهر يتجسّد أوطاناً من نـار و جليد}}}...
ثم طهر حرف جديد...

{{تباشير ولدتها مشاعر الصدق
فكانت أيقونات عشق سامية

مشاعر معتّقة بالشوق والحنين لحبيب طال غيابه
نثرتها بإحساس رقيق
في حروف من حبق}}

هذا غيض من فيض ما احتفظت به من تلك المشاعر الطيبة ...
إنها مجموعة الأكف الممزقة التي كتبتها في اقبية السجن المركزي القنيطرة... تمكنت من نشر معظمها وأنا في العتمة...
تحكي قصة وجع بل اوجاع عديدة
ها أنذا انشرها قبل أن تهب عليّ نسمات الرحيل... وأترجّل عن صهوة قلمي وأبرح من ورائي حروفي من أجل ذلك ..إرتأيت أن أجمعها في كتاب لترى النور... إذ ربما لاتراه المجموعات الثلاثة المتبقية لاعتبارات كثيرة...
ذلك انني سأرحل يوما وفي قلبي لاتزال أسراب من أمنياتي ...

وقد تفضل ياسر السري الأخ الأكبر والشيخ الأعز الحقوقي الذي ظل زمنا مديدا يناصر قضايا المستضعفين.. بكتابة مقدمة جميلة تعبر عن نبض رجل له فضل وغناء في هذا الطريق..
طريق الأشواك..... والابتلاءات....

لخص فيها وجه المجموعة لتكون واجهتها... في كلمات هي نبع مشاعر الطهر الذي يكمن بين الجوانح..

ها هي ذي كلماتي عارية من كل زيف ....
صارخة من دون خوف
واضحة من غير إلتواء......

والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لايعلمون

وجدة في 21 يناير 2019

ملح الأرض

ملح البلد

كنّا ثلاثة في إحدى الجلسات, وقد ضمّتنا غرفةً فارهة بنمارقها المصفوفة وزرابيّها المبثوثة.. وموائدها الملآى بأصناف من الحلوى وأنواع مختلفة من المشروبات.. كان مضيفنا سخي اليد كثير الثرثرة .... يطيل الحديث عن مآسي غزة وحصارها في تكرار مملّ... يجترّ معه كلّ الأحزان من اغتصاب النساء في البوسنة مرورا بكافة المحن حديثه مزيج من إجترار الحزن والبكاء على الأطلال والحسرة المريرة... ضاق صدري ولم ينطلق لساني ظل في سكون وصمت... وقد أطبق عليّ الكمد..من نكد نكش الجراح... شعرت بالضيق وكنت أضيق من الأماكن المغلقة... أشعر بأنّها بوابة سوداء تلتهمني....

خرجت من الغرفة ووصلت في هدوء إلى حديقة الفيلا الفارهة.. ثمّ ابتسمت.....

وأنا أحادث نفسي بصوت مكتوم داخلي

.... عندما نتحدُّث عن المبادئ ولا نعيشها ... نكون في واد والمبادئ في واد وإن ضجت جنبات المكان بحديث عن المبادئ...

حتما سيكون حديثا بلامعنى فارغا من كلّ محتوى... لأنّنا حينها نكون في المكان القصي البعيد عن واقعنا.. حتّى إن واصلنا الحديث عن احزاننا وآمالنا....

صدمتنا أننا سنحوّل الشعارات إلى مجرد كلام بلا معنى

كان بي جوع للكلام ... فقد طال صمتي ووجدتني انسحب مع تأملاتي بعيدا في المكان القصي..

بعد خروجي من الغرفة ذات الزينة و الأبّهة... سمعت مضيفنا يقول لمرافقي في الداخل....

لوكان الأمر بيدي لطلبت منهم الخروج من الحصار ... وليتركوا تلك الارض لهم إنّها لاتعدو أن تكون مثل قطعة"الفروماج".... فأرض الله واسعة.......

إزداد ضيق صدري.. وقرفي من المكان... فالحزن رفيقي....

يومها تناهت لنا تفاصيل الأحداث الأليمة للاجتياح.. كانت غزة تحت لهيب النار ... وفوّهة البركان

إنّها تحترق وتغرق في الظلام البهيم..........

أوّاه ... ليتني هناك محاصرا من اليهود في البر والجو

ذلك الحصار خير من حصار نعيشه يوميا....

في الفراغ بلا معنى تتابعت زفراتي

ما أشبه اليوم بالبارحة... نفس هاته الكلمات سمعتها في مجزرة البوسنة والهرسك

كنت احاور احد الوجوه البارزة في بلادنا عن تلك المآسي ودورنا في ادارة الصراع... قال بلا تردد ليتهم يخرجون من البوسنة ونتنهي المشكلة البلاد العربية قادرة على استيعاب الجميع........

يومها انسحبت وقد إمتلأت بالحسرة المريرة..

ابتعدت عن المكان وصوته يرنّ في أذني كالناقوس

لو خرجوا منها لكان خيرا لهم........
للأرض ملح وللحبّ ملح وللامل ملح
فمن يصلح الملح إذا الملح فسد.........

المجذوب

لم أمكث في الحديقة إلاّ هنيهة ... فقد طاردتني لحظات القرف, حاولت تجاوزها واهمالها... وجدت نفسي في الطريق العام.. حاولت أن أستنشق نسائم الهواء النقية ولو للحظة... أحسست أنّني أستعيد إنتعاش نفسي الملآى بدكمات وجراحات اللسان...... تحول لسانه الى لكمة تهوي على قفاي ... أفقد معها توازني...

كانت كلماته لا تزال ترنّ في أذني

لو خرجوا منها لكان خيرا لهم..........

وقفت أمام شجرة امتدّت فارعة في السماء... وفي خاطري تجول الكثير من الافكار كأنّها أمواج بحر مبعثرة ومتلاطمة ... تخيّلتها كامرأة عجوز شمطاء .. تلطم وتولول ...و إحساس غريب بالغربة يعتريني...........

فجأة وجدت قبالتي رجلا بمنظر مخيف.. لا ادري من أين خرج وأي أرض لفظته لينتصب كالثمثال في وجهي.... خلته عفريتا يتنطط أمامي ... أو هكذا

خيّل لي وقتذاك... لا ريب أن الارض إنشقّت فطلع منها.... جسدا بل عجلا له خوار....

كان قميئا نحيلا منكوش الرأس وعليه أسمال رثة بالية

تقدّم نحوي بخطى متثاقلة وقال لي باستعطاف

إعطني درهما... "الفتوح"...

أشحت بوجهي عنه وقلت له عبارة كان يرددها صديقي دائما وجدت هاته الكلمات تنبعث من لساني تلقائيا

إنّني لا أتميّز عنك سوى بالصّبر

ابتسم الرجل فبدت اسنانه الفجة في منظر مرعب.. ثم مدّ يده نحوي ليصافحني... لم أتردّد لحظة واحدة في مصافحته... فقد احسست في أعماقي أنّني ازدريته فشعرت بالندم ...

أمسك يدي بقوّة وحرارة وقال وهو ينظر إليّ بحدّة

إنّها تسكن في اعماق وجدانك

هي في العمق ... لن تتخلّص منها إلا بالموت...

إنّها والموت شيء واحد... ستظل معك ترافقك...

أحببت امرأة واحدة من بين النساء

متأسفا قال.....

انت مسكين.... فارس بلا جواد

لذت للصمت فاسترسل في هذيان الكلام

جال بخاطري احساس بالغيظ والقرف لقد فررت من ذلك الثرثار فطلع لي هذا الدجال ... ابتلعت في اعماقي ذلك الغيظ وسكنت ملابسي

عمّق النظر في صفحة وجهي وابتسم ابتسامة باهتة

أنت مسكين... أنّها سجنك وسجانك

ستظل في رق الحب والى الابد

ضجرت منه.. فأحسّ بما يعتمل في صدري فقال قبل أن يختفي

إنّها نبيهة ونبيلة وللنباهة من اسمها نصيب

ولكنّك ستموت برصاصة هنا

أشار بيده نحو قلبه

فقاطعته بضجر

لا أؤمن بالشعوذة...

قال بفتور

اين صاحبك....

اعترتني الدهشة ولم ابدها له في صفحة وجهي

رفعت رأسي لأجد أمامي فراغا... لامتناهيا لقد اختفى الرجل المكدود ...

طال بي التأمل في الحديث الذي دار بيننا وهذا المشهد الغريب ماثل امامي.....

في هاته اللحظة اطلّ صديقي من الحديقة وقال لي مبتسا وكأنه أحس بالغيظ الذي خلفه في قلبي مضيفنا الثقيل

قال بابتسامته العريضة وهو يحاكي صوت المضيف

لو خرجوا منها لكان خيرا لهم.........

عانقني صديقي وسرعان ما اختفينا لقد فشلنا في هاته الزيارة وجدنا الباب مغلقا وبشدة.. أحساس راودني وكتمته بين جوانحي

قلت لعليّ بأسف

لقد أغلقت الابواب أمامي وعبد المعين الذي ذهبنا له ليعيننا على الخروج من البلد ... لم يعنّا ...

أنه يفكر في اخراج الناس من ارضهم التي يتشبتون بها وبقائهم فيها مسألة وجود... بينما يوصد الأبواب امامنا ونحن نريد الخروج من قفص الوطن هربا من عضة القهر ... وسياط الاضطهاد والاعتقال

يالها من مفارقة

قال لي أنّ وساطته لا تجدي ملفك اكبر من امكاناته ووساطاته

قلت بتأفّف :

لقد قضيت في السجون زهرة عمري ولا بد من الخروج

قال علي وهو يقلّد الرجل

سوف تغاذر.... فلا تكترث

مغاذرتك انت أولى لك ... ومكثهم في الارض المباركة كذلك أولى لهم

كتمت ما بي من لواعج وذكرى... بادلته الابتسامة بضحكة خجولة ثم انصرفت لقد أزف الرحيل

الملح ملح البلد ملح هنا وملح هناك

قبل الرحيل

في الغد قال محدّثي بحزم

انتبه ... انت ستغادر البلاد غداا وإلى الأبد

اعتصمت بالصمت وقد حلّقت في فضاء التأمل يا لها من مفارقات غريبة ... رجل مخرف يرى حلّ القضية في خروج الفلسطينيين من غزة حتى لا يراوده احساس بالندم والعجز ... بينما في الضفة الاخرى مقاومون يرابطون في ارضهم والى آخر نفس... مهما اشتد الحصار وألهب القهر صدورهم ... بينما أنا أحزم حقائبي هربا من آلة القمع وتكميم الافواه....في بلدي.

يا لملح الأرض

نكش محدّثي في العمق وقال بعاطفة دافئة

لا بد أن تنساها... إنّني احترم تلك العواطف النبيلة التي تختزنها في اعماقك ... أنت إنسان نبيل ولكن لو تاخرت ستبقى هنا وستختفي وراء الشمس...

إنهم يطلبونك.... ولم يتبقّى لنا الاّ الليلة

بأسى قلت له وأنا استحضر كلمات المجذوب

إنّها حمى تستنطق هلوساتي تحاصرني لأستخرج بوح أعماقي في هذيان يكشف فيض المشاعر التي انحسرت في الظل.. وتقهقرت إلى الثلث الخالي في وجداني....

ران الصمت بيننا كالعادة دائما الوذ للصمت والسكون

تاملت مليّا في الأفق كانت قهوتي السوداء على الطاولة ارتشفت منها آخر جرعة ثم انتفضت قائلا لصديقي بعد صمت طويل ارتفع كجدار قاس في ظلام قاتم

إنّني على مشارف هذيان العمق أرغب في البوح ولكن أشعر بانفاسي مكتومة محاصرة أنّها تطاردني في أحلام الغفوة والصحوة

اتسعت حدقتا صديقي وقال في حياء

من اختفى عنك وراء ستارة او خيط رفيع فلتداريه حتى لاتراه بجدار سميك اثارتني كلماته فضحكت ملئ فمي كنت في حاجة للتنفس فتركت لضحكتي العنان ... كانت صورة مضيفنا والمجذوب منتصبة امامي

و أنا استغرق في الضحك...

يا لها من مفارقات في الزمن الرديء

في فجر اليوم الموالي غاذرت الوطن لأستقر في جوف سفينة تمخر عباب البحر كان كلّ شيء من حولي هادئا وكان مخيالي خصبا وقويا أقلب من خلاله كل صفحات الماضي القريب.. وأتذكّر بين الفينة والاخر الرجل المجذوب والمضيف المهووس باخراج الناس من ارضهم.... وابتسم في سخرية وأردد بيني وبيني

ما لي وللمجذوب ما لي وللمجاذيب

في الأفق هناك ملح الأرض ... ملح البلد ..ملح الحب

فمن يصلح الملح اذا الملح فسد...............

السجن المحلي بوركايز بفاس

الأطياف الثلاثة

سفر الرؤيا

حلم الأمس يعود دوما....

إنَه في أغوار نفسي... وكلَما أوغلت في النسيان.. يطفو الطيف ليذكرني ما دفنت من أسفار الماضي...لقد فشلت في نسيان الماضي الذي دفنته إنَه ينتفض من الأجداث سراعا ويعود بالأطياف من جديد

يرفرف طيف الحزن فوق سماء أحزاني المتلبدة.. يثقل كاهلي ويخنقني حتى يأخد مني الجهد... ترى هل سيطاردني ذلك الطيف إلى آخر نفس في الجسد العليل المكدود....؟...أم أنه سيختفي و إلى الأبد....

أوَاه كم يجدد الطيف العابر ... على نفسي من مرارات الأسى وحزن الماضي بكل تلاوين الأحزان الجارفة والجارحة... إنه ينكش في ذاكرتي عميقا فيبدو الجرح المتدفق بالدم والصديد...

كأنَه وليد اليوم......

الطيف العابر كنقار الخشب يدق طبول الأسى والذكريات في أعماقي.. وينقر فوق رأسي... لقد تحوَل الطيف إلى هاجس داخلي أصيل..

إنني في دوَامة تتقاذفني من زمن بعيد....

أحس بطيفها وهو ماثل أمامي لا مفر منه مرَات تزورني كل يوم باسمة وعابسة مقبلة ومدبرة فرحة مستبشرة وحزينة منكسرة شاحبة كأوراق الخريف او مزهرة كريحانة من جنائن الورد.......

ولكنني كلما طالعت ذلك الطيف ... أقف مشدودا مبعثر الأفكار فارغ الفؤاد إلا منه إنه يظللني كالشجرة الوارفة... وألوذ إليه ككهف عميق غابر ولكنني في كل الأحوال لا أحسَ بالانقباض أو الامتعاض... عندما أراها في أحلامي ورآي...

ولكنه طيف موجع ينكَؤ الجرح الدامي .... ذلك الطيف الذي أراه من المكان القصي يحمل لون الأسف والندم والأسى والحسرة والأنين.

خذلني الطيف عندما رفرف فوق رأسي بجناحي طائر ثم اختفى في غمار السماء.... خذلني الحلم البعيد ذلك تبدد كفقاعات الهواء الزائغة.. تحول إلى أضغاث أحلام وكوابيس مزعجة تخزني بأشواكها في كل مكان من جسدي وتصيح بالذكريات في وجهي تنكش في العمقوالأوجاع.

خذلني القيد الذي في يدي والزنزانة التي تعتصرني....

خذلني الصوت المبحوح في أعماقي وأخاديد ذاكرتي ووجداني...

سفر السجن والحرية

لا أدري منذ متى وأنا جالس هنا تحت سقف الزنزانة أحلق في سماء أحزاني وتأملاتي الصامتة والمكتومة والمتأوَهة الخفيظة..

يصبح الصمت داخل القبو طقسا إعتياديا.. يكاد لساني أن يصاب بالصدأ وأنا أبتلعه طيلة سحابة اليوم لا أستعمله في الليل والنهار....

المنفردة تعني العزلة إنها رحم يحمل جنين المعاناة والقهر وديعة ويمتد الألم لشهور أو سنوات قبل أن يكون المخاض بالحرية المستحيلة

السجين السياسي لا يغادر العتمة إلا في حالة واحدة .... الموت

أنا هنا..... في القبو منذ سبعة سنوات...

الحرية كلمة نسيتها ... إنني أعيش السجن ولا شيء غير السجن.. اصبحت مخذرا بالسجون ...تسكنني كما أسكنها ....ترى كم أحتاج من الزمن لأعبر إلى عالم الأحياء ... عالم الأسماء والطرقات والحياة.

هنا لاشيء سوى الأرقام والزنازن والوجوه الكالحة والأقبية والظلمة المهيمنة مع عتمة شديدة مملوءة بالكآبة والترهل...

إنفجر في رأسي شيء مخيف .. مرعب ومقزَز أشعرني برغبة جارفة في القيء والغثيان .. إنها لحظات مقرفة جداااا...إنه شيء مخيف تذكرته فجأة .. أحسست بالإنقباض و الإختناق الذي يجثم على صدري يزداد في قوة نبضاته وخفقاته..... كانوا أمامي يزيدون على الأربعة وجوههم كأديم الأرض ... صفحات مقت وغضب ولعنة ... وقفوا ينتظرون كبيرهم كان قصير القامة بعيني فأر ... رمقني بعين تطفح غلَا... وأعطى أوامره للجلاوزة... إندفعوا صوبي دفعة واحدة وهم يصيحون في صوت واحد أجش....

إخلع السروال........

ياللهول... تفصَد جبيني بحبات من العرق زادتني الخرقة السوداء التي وضعوها على وجهي إحساسا بالإختناق لكنني كنت أختلس وأتلصص من الشيفون ملامحهم وحركاتهم البهلوانية... كان ذلك الثقب بوابتي لمعانقة الصورة..

أي هول هذا الذي أراه في الوجوه وأسمعه من جلبة المكان...

وقفت جامدا متخشبا جردوني من ثيابي أصبحت خزيانا.... إنه الخزي الذي جللني..... لاول مرة في حياتي... أجبر على نزع ملابسي.....

الآن بدأت القيامة ... إنهم يجردونني من المخيط والمحيط ويتأهبون للعذاب........

قال أحدهم بعنجهية

قرفص

جلست القرفصاء والجلبة حوالي تزداد... الصراخ والحركة والأصوات....

عاد الحاج كبير الجلاوزة صاحب العينين المميزتين بالخبث والحيلة والمكر .. أشار إليهم بيده إشارات .. ثم مضى كالطيف.. بعدها أقبل الجلاوزة نحوي وأنا لا أزال مقرفصا ... قال أحدهم آمرا

أكْحُبْ

كان جوابي الصمت والدهشة إنني لا أفهم ماذا تعني أكْحُب ...؟

صاح الآخر وهو يقهقه

أك حُ ب يعني اعمل هكذا .. ثم افتعل السعال بقوة كأنه نهيق حمار... عرفت حينها أنني سأكْحُبُ على طريقة الجلاوزة كحبْتُ لأوَل مرَة كان سعالا هو مزيجٌ من الأسى والحرقة والحسْرة... كلَما سعلتُ بقوة كان الجلاوزة يضربونني على ظهري بعنف...لهم فيها مآرب أخرى......

قال الحاج الكبير...

خذ وه فغلَوه ثم إلى الزنزانة 72 أدخلوه...

مضوا بي في موكب جنائزي صامت ... إلى العتمة الباهرة....

سفر الطيف

من كوة الزنزانة كنت أطلَ على العالم الخارجي أرى في الصبح قرص الشمس وهو يلتهب إلتهابا وفي المساء أقف متأملا لحظات الغروب الهادئة

القبو المقيت و الزنزانة باردة وصنبور الماء لا يكف عن إرسال قطراته في الجردل... قطرات تخترقني كالرصاصة المكتومة الصوت...

كل ذلك لا قيمة له عندي لقد فقدت الإحساس بالزمن والمكان... إنَ الحياة مظلمة قاتمة ... أظلَ أنتقل بعيني من مكان إلى مكان... هناك في الأفق يتخيل لي طيف أعرفه أشعر بالضيق .. فأرسل زفراتي الحرى....

البارحة رأيتها ...... في منامي كنت أركب حافلة مزدحمة بالناس مع أني امقت الزحام ..بعد عناء وجدت مكانا شاغرا ألقيت جسدي على أول كرسي وإرتخيت فجأة وجدت طفلا يقبل نحوي ويجذبني ... إنه يقف أمامي ذلك الوجه أعرفه صفحة وجه ياسر ... كأني أراها أمامي في اليقظة ... سحبني إلى مقدمة الحافلة وهو يشير بأصبعه يحثني على المسير فجأة وجدتها...... كانت تجلس في مقدمة الحافلة كانت بحجابها الرمادي المألوف لي وجهها المشرق المشرَب بالحمرة صاف أصيل... إرتمى ياسر في حجرها ...رمقتني بنظرات ذات معنى تأملتها فإذا بها شاحبة الوجه ... لكنها هي... كأنها لم تتغير قط ولم تنحت السنين تضاريسها في رقعة وجهها.... إنصرفت وأنا ملتزم بالصمت... الصمت السيد المطاع .... دائما ينصرف العشاق انصرافهم الصامت........

أفقت على آذان الفجر كنت أشعر بغير قليل من الإنشراح لقد زارني طيفها من جديد... نفسي التي فقدتها ولا أزال أنشدها ... ها هي ذي ترفرف مع أطياف الماضي وأسراب الطيور وهي تفزع من أعشاشها وتصرخ في السماء.

فتحت صنبور الماء لأتوظأ فشردت للحظات ... كان الماء وسيلتهم للتعذيب كم كان قاسيا ذلك المشهد المقرف وهم يوهمونني بالغرق.... الماء والغرق والشيفون اللعين الصابون الماء الذي ابتلعته حتى كادت نفسي أن تزهق......

الماء الذ ي اصبح عدواااا....

في لحظات الإختناق... الإستنشاق والإستنثار... عذاب وألم لا يطاق... أما جلسات الكهرباء فجحيم وعذاب وغصة من الألم العميق.... يطول بي الشرود وأتغلغل فيه كما يتغلغل الطائر ا لمحلَق في غمار السماء وكبدها...

ولا يزال بصري عالقا في اتجاه الطيف والتيه والسراب.

هلوسات مجنونة وألم كالجرح النازف بالدم والقيء والصديد ... وأعجب ما أعجب من أمر نفسي أنني في رحلة الشقاء داخل مربع العتمة لم أكن أبكي قط من القهر كنت أشرد فقط على أي شيء له ذكرى في أعماقي وربما أشرد على غير شيء... بدأت الأطياف تراودني في اليقظة خُيَل لي يومها أن عارضا من عوارض الجنون قد لحق بي وخالط عقلي... كان خوفي يشتد واضطرابي يزداد ذلك اليوم جاء كبير الجلاوزة في العتمة كل الجلاوزة حجاج هكذا يزعمون

ربت الحاج على كتفي قال بكلمات مسموعة إصطنع فيها الأسف

أقولها وأنا أشعر بالأسف والأسى يؤسفني جدا أن تكون هاته نهايتك....

لقد إخترت الجهة الخاسرة نحن الأقوى نحن الرابحون دائما في الرهان

المخزن يدو......طويلة..........

ثم مضى واختفى كأن الأرض إبتلعته

ذلك الطيف الآخر زارني ذلك المساء رأيت خالد رحمه الله خلود الإسلام وعزته

بوجهه المشرق وبسمته الملائكية الصافية كان يبتسم .... تكفيني إبتسامته لتزودني بالقوة والعنفوان ومولدات الإيمان....

خيَل لي أنه يهزني هزا عنيفا وهو يقول

إننا نبتنا معا في تربة واحدة........

ثم إختفى .. نفضت عن كاهلي غبار الألم وإستعنت بالركن الشديد... يومها بكيت في محراب الطهر والصلاة بكيت كثيرا حتى تطهرت أعماقي من الأعماق ثم لذت للنوم...

رأيتُ أطياف .... الأطياف .... كلهم كانوا معي يمدون إلي أيديهم يبتسمون وجوههم مشرقة ناظرة مستبشرة...وعندما فتحت عيني طالعت وجوه الجلادين عليها قترة... و ذلة لا تخطؤها العين...

قال كبيرهم..سترحل اليوم

أشرف علينا جلاَد آخر وهو يبتسم بخبث وسخرية

الحمد لله على سلامتك......

كانت آخر الكلمات التي ودَعونا بها بعد رحلة من العذابات وشهور مضنية في الجحيم....

أرسلت زفراتي من جديد كان الماء يتدفق حتى غمر المكان..

أتممت وضوئي وقد جثمت الذكريات فوق صدري...

قلت وأنا أغمغم

ستنفجر لمة الظلام من جبين الفجر

أليس الصبح بقريب.....

بعد الصلاة إستلقيت في المكان القصي من الزنزانة لأخلد للنوم وقد أقلقت الأطياف مضجعي.. قبل أن أرحل إلى عالم الغيب والشهادة سمعت هاتفا يردد في أعماقي.." لا خير في حياة يحياها المرء بغير قلب ومبدأ

ولا خير في قلب يخفق بغير...حب" ......

انتهى

السجن المحلي بوركايز بفاس

أطياف هائمة

لمحت في محجريها مشروع دمعة تكاد أن تنساب من عينيها الواسعتين

لذت بالصمت... وأرخيت جسدي وحمولي على جداره, وساد السكون للحظات.. كم كانت ثقيلة وجارحة... استجمعت قواي حتى لاأضعف أمام لحظة حزن مرسومة على محياها

بلا مبالاة قلت لها

. سأغادر...

. دائما تلوح بالسفر كحل وحيد جاهز تبادر للاحتماء به

انسابت الدموع منها بغزارة دفعة واحدة.. كم كانت دموعها حارقة.. وهي صامتة في حزن مكتوم...

تألمت في أعماقي.. إنّه مزيج من الحسرة والحيرة والألم الجارح

حاولت أن أكفكف دموعها بيدي ولكنها كانت أقوى في انسياب متواصل, خلتها للحظة زرقاء اليمامة بل تخيلت تلك المقلتين وهما يرخيان بدل الدموع دما أو زجاجا جارحا

انتفضت من مكاني وترجلت إلى زاوية الغرفة حيث النافذة تطل على باحة الدار... نظرت في وجهها فإذا بالدموع تزيده جمالا وورنقا هادئا

كنت في حاجة للبوح ولكن الصمت يجبرني على الرحيل في تأملات تسحبني في أطيافها الهائمة.

منذ نعومة أظافري كنت كثير السهو عميق التفكر .. وإذا حلّقت بي أفكاري في فضاء الخيال أغيب عن الأرض لأحلق بجناحي طائر في الكون الفسيح...

ومع الزمن استطعت أن أكون عالما خاصا بي وأتقنت التدرب على الطيران في الخيال لأحول الذهن إلى مشتل للأفكار والذكريات والخيالات الهائمة والحلم... حولته إلى شريط تسجيلي سجلت عليه آمالي وآلامي,, أحزاني وابتساماتي

كان مخيالي خصبا

أحسست بيدها تمسك بيديّ في حرارة وعمق.. أفقت من سهو اللحظة , تأملت في وجهها كان بي جوع رهيب لوجهها وكأني لن أراه بعد اليوم .. شعور انتابني تلك اللحظة وأزعجني

قالت في شبه سرحان

. سأنصرف إنني متعبة

وسرعان ما غادرنا الدار في صمت وكأننا في موكب جنائزي. وجدتها عازفة عن الكلام فاعتراني عزوف مماثل... أحسست معه برغبة جارفة في الخلوة بنفسي.... لم أكن أعرف سر حزنها ودموعها ولكنني آثرت الصمت وفي أعماقي بركان هادر

استقلت الباص وسرعان ما اختفت بينما اخترت أن أنطلق في رحلة مشي لا أعرف أين تقودني قدماي..........

وصلت مشارف المدينة وتوقفت قليلا لأستنشق نسائم الهواء

. إنني أكاد أن أختنق

في الطريق تذكرت كل الماضي القريب بحزنه وألمه.. رحلة الشقاء التي أمضي فيها ولا أعلم أين تنتهي بي

إنها تزداد اتساعا كرقعة خارجة عن السيطرة

غمغمت بيني وبيني

. ربما تنتهي بالسجن ولم لا.......

لاشيء يهم ... إنه الحصار الحصار المرير

كلمح البصر اختفت .. وكأنها فقاعات هواء زائغة... أصبحت ذكرى بل طيفا هائما.. بحثت عنها في كل مكان حتى عيل صبري فلم أجدها

بعد يأسي سألت نفسي

. ترى هل كانت حقيقة رفيقة دربي ولباسي ومهوى فؤادي... أم أنني كنت في أحلام اليقظة والخيال ... ربما كانت خيالات هائمة من خيالاتي......

لا لا إنها حقيقة مرة تحولت إلى مجرد طيف مر من هنا ومضى

ولكنها تعيش في وجداني وعمق كياني المحموم بالحب المولع باعتراض العاصفة وامتطاء الريح

. افترقنا.......

دون أن أسمع منها نبسة أو حسا أو بنت شفة

وطالت سنوات البعاد والجفاف وحصاد الغربة

تحول الماضي لأطياف هائمة.................

السجن المحلي بوركايز بفاس

جدّي الحاج أحمد أبو زيّان

دهم الموت دارنا ذلك الشتاء ... عندما كانت الغيوم تغطّي السماء . لم يكن هناك أحد في المكان... وقد لاذ الناس لدورهم إتّقاء البرد والزمهرير القارس...

كانت أمي تُصلّي عندما جاءنا زائر على غير ميعاد .. في ذلك اليوم .. كان شاحب الوجه وقد علاه الوجوم .. وكأنّ على رأسه الطير... جاء وهو مضطرب للغاية .. ألقى قنبلته بيننا ثم اختفى في لمح البصر.

لقد توفي الحاج أحمد أبو زيّان ...

بدا الارتباك على وجه أميّ وهي تغالب دمعة حزن تكاد أن تفرّ من محجريها...أتمّت صلاتها في خشوع تخيّلتها في تلك اللحظات العاصفة كشمعة تحترق في صمت وحزن وسكون.

أنهت أمي الصلاة وقد اغرورقت عيناها بفيض من الدموع المحتقنة .. هرولت نحو جلبابها وخمارها وفي آلية انطلقت صوب الباب وهي تغالب الدموع والأحزان ... تسمّرت بمكاني للحظات كنت وحدي . وقتذاك . يلُفّني الصمت وتعتصرني الذكريات .. وأنا أصغي إلى نداء خفيّ مجهول .. كان قلبي يعتصر كمدا ودموعي تتدحرج من محجري فتظنيني..

لقد مات جدّي الحاج أحمد أبو زيّان.........

تحرّكت ببطئ وعفويّة.. وسرعان ما انطلقت أعدو لألحق أمّي .. كانت مكلومة.. فقد فقدت " الوتد" وطالما كانت ترنو لأن تكون إلى جواره وهو يغرغر في حشرجاته الأخيرة... بعد رحلة مرض طويلة وشاقة.

لا أدري كيف قطعنا أنا وأمي تلك المسافات والمفازات الشاسعة التي تفصل بين دارنا وبيت جدّي....

كنّا نخترق الطرقات واجِمِيْن في غير مبالاة أو اكتراث لقد كان هوْل الموت قويّا له دويّ في عمق النفس وقد بدا الكمد جليّا على المحيّا الشاحب .

كنت أسمع أمي وهي تتمتم "تمتماتها" الخفيظة وتدعو له بالرحمة وهي ضارعة تواصل هرولتها و تواصل الدعوات الحارة فيختلط البكاء الأخرس بدفق الدمع الساخن بينما يصلني صدى أنينها المكتوم المنبعث من العمق.. يتردد صداه المكلوم في حسرة مهيضة الجناح وألم كالغصص الحرار...

كنت أهرول لأدرك أمي وقد أكلها الحزن ولاكتها أفواه المرارة السوداء

." أيّ قوة جبّارة تلك التي بين جوانحها .. ألهمتها الصبر والعزاء رغم المرض الذي ينخر جسدها العليل "

كانت شمعة تُريقُ دموع احتراقها في صمت وحزن وصبر وأناة.

كنت على أمل يراودني في الهروب من مخيالي .. من تلك الخيالات المخيفة وهي تنهبني نهبا فلا أستطيع ان أرتّب أفكاري.. إنني بحاجة لاستعادة تفاصيل ماحدث.

أن أحاول احتواء ارتباكي وحيرتي وأن أمتصّ حزني الصامت

... لقد مات جدّي ...... رحمه الله

...وددت أن أصرخ في الدنيا , وأن أرفع عقيرتي عاليا وأصيح

. مات ... مـــــــات

.... جــدّي

"إنني في حاجة للحظة جنون وانعتاق "

... كانت المسافة . الفاصلة بيني وبين أمي ودار جدي . كبيرة

وأخيرا لمحتها من الافق وهي تدخل الدار وهي ذاهلة تغالب الحزن والكمد...
... أطلقت سيقاني للريح كي أدركها

. لقد مات جدي ... رحمه الله

2

وقفت أمام جسد جدّي، كان ممدّدا في الفراش ذاهلا كمن لا حقت عيناه طائر الردى وهو يحلق إلى أن يختفي في غمار السماء . كم هاضت تلك العينان الهائمتان جوانحي.. ذاهلا كنت أحدّق في الجسد

. يا دموعي أهلّي وسيلي ... رحل جدّي

.. ذلك الوتد الذي قامت عليه الخيمة.. وارتبطت به حياتي السالفة

...إنه أصل الشجرة ونحن أغصانها وفروعها

ذكرتُ بسمته الصافية وانشراح صدره وهو يرتّل آيات القرآن .. فتترقرق من ... شفتيه كالعسل غضة طرية متقدفة ندية

كانت أمي ـ لحظتها ـ تمسك يده الباردة المتكلّسة .. في هاته الحظات الحرجة .....تسحّ دموعها في صمت وتتلو آيات من القرآن

"...يس .. والقرآن الحكيم ... إنّك لمن المرسلين "

تواصل التلاوة في حزن ووقار .. أمّا أنا فقد وقفت جامدا متخشّبا أمام الحائط حتى صرت ملتصقا به... لم أبكي لم أصمت لم اتحرك وقد تهت في تفاصيل اليوم الغدافي الأسود.

استسلمت لمشهد الموت الرهيب ، كانت عينا جدّي شاخصتان للسماء

غمغمت وأنا أغرق في الصمت.

. مـــــاتْ

كان مخيالي وقتها يملأ الغرفة بالنور وإذا بالمكان يتحوّل في مخيّلتي إلى فضاء مزروع بالورد واالرياحين وجنائن من عرائش الياسمين.

أحدّق في الجثة الهامدة وهي أمامي "كالخشبة " وقد رفرفت الروح في معراجها إلى السماء .. تتغلغل فيه كما يتغلغل الطائر المحلّق في غمار السحب.

. أشرد قليلا وناظري لا يزال عالقا اتجاه السراب

أعجب ما أعجب منه ـ لحظتها ـ أمر نفسي الهادئة .. إنني لا أّذرف دموع

العين.. بكاء القلب الدامي وهو يقطر بالدم.. هو بكاء الألم الصامت... أورثني هذا المشهد الجنائزي همّا على همّ.. كاد فؤادي أن يكف عن الخفقان

. آ وّأأأأه للموت رائحة في هذا المكان

..تنتشر الرائحة كدبق الدم وسرعان ما تتبدّد بريح طيّبة ورَوْح وريحان

3

لقد تحرّكت السنين ودارت الأفلاك والنجوم .. وجدّي لم يتحرّك تغيّرت المبادئ والأزمان والبشر تغيّروا والطقس تغيّر لكن جدي ظل كما هو لم يتغير وجهه المضيء الوقور كأنه صفحة وجه القمر . . ولحيته البيضاء التي تزيده هيبة وتصبغ عليه هالة الاحترام ,, لم تتغير وجلبابه الابيض النقي و" بُلغته" الصفراء وعمامته البيضاء المميزة ومشيته الهادئة الرزينة وعصاه العتيقة السوداء .. كلها . ذكريات عن رجل مضى ها هو الآن .... جثة هامدة .. لا حول لها ولا قوّة

. إنه جدي الحاج أحمد أبو زيّان كما عرفته منذ نعومة أظافري .. هو نفسه ... جدي الميت الآن

أحسست بانقباض شديد إنني أعيش لحظات قاسية في هذا الحقل الرهيب .. ....حقل الموت

طرق الباب الفقيه الميلود تقدّمت نحوه في حزن أخرس.

أطرق في صمت وقال بحزن

... . أريد من يساعدني في تغسيل الميّت

تهيّب الجميع هذا الأمر الجلل أقشعرت جلودهم فتقهقروا .. أصبحت وحيدا .. حدّق في وجهي ثم قال

. ممكن ... أن تساعدني

...لذت لصمت القبور

لا ضير أن أشرب من الماء الآسن ، لا بأس ان آكل اللقمة المعفّرة بالتراب ، لكنّني لا أقوى على رؤية جدي ممدّدا أمام " الغسّال" وأكون أنا من يصبّ الماء على جسده ويكفّنه..

يالها من لحظات ثقيلة جدّاااا

غمغمت دون تفكير وقد غامت عيناي بالدموع

لا ضير ....

"... لا بدّ لي من إدراك معنى ... أن يموت الإنسان ويرحل "

سرعان ما لملمت تلابيب نفسي ، ارتفع صوت من داخلي لماذا لم تقل " لا لا لا " ولكنه صوت مكتوم متكوم في أغواري ككيس من تراب.

قد تكون " لا لا لا" ممكنة في كل الأحوال .. ولكنّها لن تكون مبررا أبدا داخل الغرفة الفارغة من كل أثاث وجدت جدي ممددا وماء الغسل قد أصبح جاهزا والمُغسّل ـ الفقيه الميلود ـ مستعدّا. وسرعان ما انهمكنا سويّة في تغسيل جدي وتكفينه... كنت أشم ريحه الطيّبة أو هكذا كان يخيّل لي، كانت لحظات مصيرية في حياتي.

هاجسٌ ينتابني بين الحين والحين , عتاب ولوم خفي

"لماذا لم تتقهقر وتقول " لا.

.. تفصد جبيني بحبّات من العرق حاولت الفرار من هواجسي

لن أنصت لصوت نفسي مهما علا الصخب والضجيج من حولي .. أو مهما

...اشتدّ بي الوهن والضعف

"سمعت الفقيه الميلود يقول "محمدلا

. انتهينا ... فرغنا بحمد الله رحمه الله

أرسل زفرة حادة من أعماقه ، أحسست بلوعتها

.كان رحمه الله رجلا فاضلا

هكذا قال ثم اتجه نحو الباب واختفى بين الجموع... بينما تقاطر أهل الدار لإلقاء النظرة الأخيرة على الميت.

لمحت في وجه امي تباشير الرضا ربتت على كتفي وقالت بحنو وعيناها ملأتا حزنا...

". بورك فيك يا " ولدي

.. " يموت جدي .. وأغسله وأكفنه وأنفض غبار قبره من يديّ

.وفي نفسي ألم دفين وبعيني دمعة وفي قلبي حسرة

..انسللت إلى الخارج .. وجلست في انتظار الجنازة

كنت ـ دائما ـ أعرف طريقي إلى بيت جدي مدفوعا بقوة غامضة لا تقاوم .. لا فكاك منها مهما ابتعدت سرعان ما أعود

. الآن ... لحظة حزن جارفة وكمد قاتل وتيه متواصل

تذكرت أن اليوم هو يوم " الجمعة " احتشد الناس في الزقاق.. كانوا يتزاحمون أمام الدار وسرعان ما انطلق الموكب الجنائزي الصامت

. إلى مسجد النور المحمدي

الحشود الغفيرة وكأنّ على رؤوسهم الطير، رفرف طائر الحزن فوق رأسي .. فسكنت ملابسي لائذا للصمت مستسلما للشرود.

4

علت في السماء صرخات ملتاعة ذات أسى ولوعة جارحة ، أزعجني بعمق ذلك الصراخ ، تألّمت في صمت .. " هل كان يرضي جدي أن تكون نائحة تشدّ من شعرها في جنازته" .

إنني أحتقر الصوت العالي وأنفر من الصراخ بطبعي حتى لو كان صوتي .. . إن صرخت وارتفعت عقيرتي .. شعرت بعتاب وتقريع داخلي مرير. رأيت أحدهم يسحب المرأة النائحة خارج البيت وسرعان ما ساد السكون ... بينما تواصل البكاء المكلوم المكتوم في حزن جليل صامت.

ها أنذا أسرح في ملكوت من الذكريات جدي الحاج أحمد أبو زيان وهو يقف أتسلل إليه خلسة كنسمة هواء صافية في .. شامخا كالمئذنة ويمشي الهوينا بوقار يوم حر أوقر ... أقبل يديه البيضاء اللينة ، يبش في وجهي فتشرق من صفحة وجهه ابتسامته الجميلة .. ثم أمضي معه في الطريق أرهف السمع له وهو يتلو آيات القرآن....

كم كانت قراءته شجية .. إنها سياحته اليومية.

وعندما ندنو من مشارف " الدرب" وألمح بيتنا على بعد خطوات أنطلق وأنا أعدو لأبشّر أمي بقدومنا ....

"جاء جدي ...فتهللي وأجملي ".

كنا نجلس عصر كل جمعة متحلقين حوله .. كان وتدا ويدا....

نجلس صامتين كأن على رؤوسنا الطير نرهف السمع لحكاياته وقصته في المعتقل .. عندما تصدى للقائد الفرنسي وقد أطاح به أرضا بضربة قاضية ... يومها كان السجن في حسي مرتبطا بالبطولة والنضال والمقاومة وقد كان عندما احتواني بين أحضانه وأشواكه .

بينما جدي يواصل الحكاية كان يتناهى لسمعه شيء من أصوات الأغاني منبعثة من " الرائي " او المذياع . أرى الانقباض باد على وجهه .

ويزجرنا زجرة واحدة

- أغلقوا... فم الشيطان

ثم تختفي الأصوات في لمح البصر... الشيطان في حس جدي حينها هو ذلك المذياع او مخيال الرّائي . كم كان جدي يمقت ما يبث فيه من لهو وعبث... بينما يحثنا على سماع القرآن بلا كلل أو سأم.

وعندما يعم الصمت أرجاء الدار ينطلق في حكاياته وسرد تجاربه ونحن متحلقين حول " براد الشاي " لساعات طويلة...

..كان يحلو له مرات عديدة أن يداعبنا دعاباته الجميلة

كم كان جدي رائعا وكم كانت تلذ لأذني سماع قصصه ورحلة كفاحه وإيمانه العميق... أتخيّلها أمامي في شريط متواصل من الذكريات.

توقفت قليلا عند حرارة الذكرى التي ثارت في الصدر ألتفت لأستوثق من المكان ... المقبرة ... أمامنا ... عما قريب نواري جدي. الحاج أحمد أبو زيّان. " التراب... إنه مثواه الأخير

سأنفض تراب قبره من يديّ ..."

تأوّهت وربما حاولت أن أصرخ صراخا داخليا ، لكنني احتبسته في صدري فاحترق... عندما ولجنا المقبرة في موكبنا الجنائزي المهيبٍ رأيت أسرابا من الطيور وهي تفزِع من أعشاشها وتصرخ في السماء المتلبدة بالدخان

لكأنها تبكي جدي أو ترثيه "."

زفرت في حرارة وأنا أتمتم بيني وبيني

"قد ينتج أعظم شر من أعظم خير كما ينتج أعظم شر من أعظم خيرّ ".

ثم اختفيت بين الجموع....

.....إنها لحظات فاصلة في هذا اليوم المشهود

5

كلمة " الموت " تعني النهاية .. نحن ننطقها بلا مبالاة ، الموت هكذا ببساطة، وربما نكتبها على الورق دون أن تثير فينا شيئا أو تحرّك في نفوسنا إحساسا بالألم والاحتراق والمضاعفات المرعبة والمدمرة.

ها أنذا أقف على أعتاب الموت... القبور في كل اتجاه تحيط بنا من كل مكان.. .. ليس الأمر هيّنا

...إنها لحظات من التأمل الحقيقية .. تبدأ من هنا من المقابر وبين الحفائر

عندما يموت الإنسان ويترك أحلامه الجميلة التي لم تكتمل وتعلُّقهُ بتلابيب " الأمل والرجاء ... ثم يودع ربيع عمره... أو خريف حياته، يودعهما بعيني ملهوف وكأنه يتوسل للبقاء..."

"... " حينها ندرك حقيقة أن نخرّ صرعى وموتى

ما أقسى لحظة الموت والفراق.. عندما تواري في التراب من تحب وتتركه يثوي في مثواه الأخير ..." بحفرة" مجرد حفرة نائية لا حس فيها ولاخبر ....

وتتركه للنسيان لآلاف السنين نائما نومه السرمدي الطويل ينام وهو عاجز في قبره ... بينما الدنيا من حوله في هزيجها ومريجها وصخبها وضجيجها واضطرامها...."

جدي تحت التراب ... يرقد عاجزا كقطعة خشب متعفن

..... أليس الموت رهيبا

..وهو مصيري بعد المسير

ما أوحشه من مصير وما أقصره من مسير

حركت جذور ذاكرتي فانطفئت حرارة نفسي

. ما أصعب الكلام

انسحبت خارج المقبرة والألم يعتصرني والكمد يأخد بمجامع قلبي وفؤادي.. كنت أمشي في فتور وألتفت مرات إلى الوراء لأودع القبر وما حوى .. وأودع ...أحزاني وتاريخي وأيامي الماضية وجذوري

6

في المساء أحسست بشيء يغلي في صدري كما يغلي الماء في القمقم كان برأسي معركة دامية تضطرم فيها أفكار وتأملات عن الموت ومعنى أن نموت ...وأن نواري في التراب سوءة أخينا الإنسان

غصت في فلسفة الحياة والموت والحرية والقيد...قادتني قدماي بعد رحلة مشي طويلة إلى المقبرة.. تجاوزت بوابتها وأنا غارق في شرودي، لا أدري أطال الوقت أم قصر وأنا أمام قبر جدّي.. أخدتني سنة من النوم بجنب الشاهد والصبّار وفي النوم طافت روحي في ملكوت فسيح رأيت جدي جالسا بلباسه الأبيض ووجهه المضيء فانبسطت أساريري... أفقت فجأة جلست مقرفصا وأنا قدّام القبر وقد اعتصمت بالصمت... أرهف السمع للأشجار والريح وهو يداعبها.. وللأرض والتراب، أحسست أن القبر مشهدٌ آخر من القبو والزنزانة التي التهمتني لسنوات طويلة كانت " المنفردة " قبري وكان السجان كفتنة القبر ...وعذابه المرير

انتفضت قائما وحديث عن " الفطرة " يراودني ، تلك الخامة الأصيلة للحياة " الأولى ومصدر طاقتها الحيوية وعن النفس وما تحويه بين جوانحها من متناقضات "....ونوازع شتى وبما يصدر عنها من تجارب وآلام

طيلة المسافة الفاصلة ما بين المقبرة والطريق السيار كنت أحلّق مع لحظات من ذكرى الطفولة عندما كانت الأفعال منطبقة مع نداء الفطرة.

غمغمت في استسلام عميق" على الإنسان أن يكون في حالة تمحيص دائمة لأفعاله".. لقد عشت أحمل في جسدي بصمات القهر تعكر صفوي جهامة وجه الجلاد الذي يطاردني في أحلام اليقظة وفي كوابيس الليل وألمح من وراء النسيج الرقيق الذي يلفّني كغشاء الشرنقةالحريرية بصيص أمل فأندفع كالفراشة محلّقا في الفضاء الفسيح معانقا للحياة..لأمكث تحت ظلال الشجرة الباسقة الوارفة.

القبر والموت والقيد والقبو والحرية والسجن والعتمة والسكون والأحزان والآلام والأوجاع ...موت جدي ذلك اليوم ذكرني بلحظة مغادرتي للسجن .. وأنا أبتسم ساخرا من الجلاد

.... لم يكن بميسورهم رغم أدوات القهر مسخ فطرتي

هناك داخل العتمة تصبح كافة القوانين الأرضية تبريرا للبطش والقتل في أبشع صورة من صوره...

... ألتفت نحو المقابر

. أوّاااه ... خرجت من قبري من زنزانة قهري

أما أنتم فمتى تخرجون من الأجداث سراعا

أحسست بالموتى كلهم وكأنهم ينتفضون من أكفانهم البيضاء ويرددون في صوت واحد كان له صدى تردد كالصعق والبرق في السماء الواسعة

"..... "من زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز

لمحت جدي من بينهم وهو يتقدم صوبي ويردد بقوة

. ما مصيرك بعد طول مسير

أفقت من شرودي وأنا أردد " مصيري بعد مسيري إنه القبر القبو الأبدي السرمدي ... "

استنشقت كمية من الهواء ملأت بها رأتي.. وأنا أمشي انسكبت قطرات من السماء وبدا البرد أشد مما كان.

كنت لحظتها أسمع لقطرات المطر طرقعة خفيفة شعرت أن الحذاء يكاد يخنق قدمي وباختناق يعتريني من رأسي لأخمص قدمي" أكاد أموت "

رغم إحساسي بالدفء ذلك الإحساس الذي افتقدته من زمن بعيد وأنا في القبو المقيت...

... مات جدي

...هكذا غمغمت وأرسلت زفراتي الحرّى

.... في شرودي واصلت المسير تحت وقع زخات المطر

السجن المركزي القنيطرة

الأكف الممزقة

عن معارك الأمعاء الخاوية... ورحلة الجوع

كانت لي صداقة مع الموت صداقة ومودة لم أكن أتجنبه ولا أتجنب ما يذكرني به من مواقف , إنه مداد من الأمل والحب والألم والحزن والإنعتاق..

هل في الموت أمل.. ولم لا؟؟ للسواد جماليته وللدموع ألقها وللموت جاذبيته.. إنه نداء الرحيل

نخرج من الموت الى الحياة ومن الحياة نعود أدراجنا إلى الموت..

رحلة ممتدة هي مزيج من كل تلك المشاعر المتباينة والمتناقضة

حب وكراهية فرح وأحزان.. صخب وسكون..

أذكر صفحة وجه الموت كصفحة وجه القمر.. إنه في حسي وخاطري.. يرافقني كظلي .. دائما معي في إهابي وبين جلدي وعظامي, الموت في كل مكان.. إنه يسكن كل الوجوه , هو في الطرقات وفي كل اتجاه.. اينما سرنا نراه

الموت في حسي يتحول إلى حياة.. دائمة.. حياة وأمل وامتداد ورحيل للخلود

لدا أحب الحياة والموت معا .. دفعة واحدة

تبدو الأماكن امامي وفي حسي كالأكف الممدودة .. كإشارة قف.. ولكنها أكف ممزقة تسيل دما وتئن ألما وتنزف صديدا وقيحا مترهلا...

ثرثرة صامتة في أعماقي تثرثر دوما عن الموت والحياة وما بينهما تسائلت بصمت وحزن ومرارة

لماذا نكره الموت ؟؟؟..

أليس الموت جديرا بأن ترفع له القبعات وان ننحني أمامه إجلالا واحتراما ونعانقه في حرارة إنه مصيرنا... نعم مصيرنا مهما طال الفرار

لقد ثرثرت بيني وبيني وطالت ثرثرتي اكثر مما يجب الآن ألوذ لصمت من نوعٍ آخر. يا له من صمت قارس كبرد الشتاء

لاحظت أن جميع من حولي يحدقون في وجهي بدهشة رابهم شرودي أو لعلهم يستغربون سياحة التفكر الشاردة التي طاردتني بأطيافها

أمعنت النظر في وجوههم الشاحبة , هالني شحوب وجه عبد الرحمان .. محياه يبدو مليئا بالحزن والكمد خلته للحظات مغبر الجبين

الحزن سيد المكان

فجأة انتفض الحاج الدكالي من مكانه وأرسل تنهيدات حرى وهو يغمغم في ألم وحسرة

–يا لناب الموت الأزرق الأكول

رفقة السجن والقمر إنها ليالي سهاد تطول حبلى بالألم وكأنها أعاصير من نوع جارف.. تسونامي لايوقفه أحد يقتلع كل شيء ويدمر كل شيء..

الموت والحزن ولحظات الاحتضار إنها كلها حصيلة سنوات من الألم والعتمة

باغتت تنهيداته الحرى المكلومة تثاؤبنا أحسسنا بغير قليل من الحرج والتقصير

إعتراني خجل غرقت فيه للحظات وقع في حسي أنني عندما شردت في الجنازة وانسقت وراء أطياف الموت والذاكرة قد خنت ذكرى الطيب وهي لاتزال شاخصة في وجداني وماثلة في أعماق ذاكرتي, نفضت تراب الألم ووجع الرمال من جوانحي وأنا استرجع تفاصيل وجه الطيب.. لقد كدت أن افقد في ذاكرتي ملامحه أعياني الاسترجاع من أعماق الذاكرة.. غمغمت بيني وبين نفسي

– رحمه الله لقد كان رجلا

وسرعان ما رفرفت بي الذاكرة بعيدا إلمرافئ المعتقل من جديد.

. من السجن وإلى السجن أين المفر ؟؟؟

كنا في عنبر السجن المركزي ذلك اليوم قررنا خوض إضراب جماعي عن الطعام . طالت أيام التخطيط وكتمان السر والاستعداد الدؤوب.. وحان الميقات .. أعلنا اخيرا عن معركة الأمعاء الفارغة .. بعد ايام من موتنا البطيئ ونحن نستنزف في حلبة الموت ..

جاء الجلاوزة .. اقتحموا زنزانة سعيد اقتادوه سرا إلى ساحة السجن ومن هناك حملوه إلى رحم المعاناة " الكاشو" فيه خاض رحلته المجهولة..

بين أنياب القهر الزرقاء الاكولة

كنا نمشي الهوينا نذرع العنبر أنا والطيب وقفنا للحظات صامتة امام بوابة الزنزانة الموصدة ,, هنا كان يثوي سعيد الغريب الأطوار المتناقض حد التباعد الموغل في الغرابة حد التنائي والاغتراب.. الآن غاب سعيد وغابت معه ضحكاته العالية اختفى ربما لن نراه بعد اليوم...

جاء عادل بخفته المعهودة وعيناه الخضراوتان تنطقان بالحزن والكمد . اشار باصبعه الى البوابة الخرساء ثم قال لي بصوت خفيض

-إقرا تلك الكلمات

قراها بصوت مسموع والطيب يهز رأسه

- لقد كان أسدا

ابتسمت ثم أقفلت راجعا إلى القبو كان الطيب مملوءا بالألم والاوجاع . خاض معركته الاخيرة قبل الرحيل وكثيرا ما كان يقرف من سعيد وهو يترنم في مطبخ السجن

-سنخوض معاركنا معها...

وهو يربت بخفة فوق بطنه البارزة

كانت أنشودته المفضلة ملآى بالسخرية الماجنة

ذلك اليوم أنهكني الجوع والالم والامتعاض والذاكرة يا لبؤس الموت الصامت

مرة أخرى اشرد في جنازة الطيب رحمه الله أنتبهت من شرودي وقد تناهى لمسامعي نشيج وبكاء الحاج الدكالي . كان مؤلما يخترق الجمجمة كحد الصوارم

حاولت أن اتفرس الوجوه من حولي مرة أخرى احسست بالغربة..

إنها الغربة تطاردني منذ أن التهمتني البوابة السوداء.. لازالت تطاردني بقوة وعنف بعد أن غاذرتها..

مع احساسي بالغربة تسلل لي احساس آخر بالبرد القارس وحصار وجوه خرساء صماء بلاملامح.. او هكذا كانت تبدو امامي ..

وحده الحاج الدكالي آلمني وجهه وحاصرني حزنه العميق..

" مداد الأمل والحب والألم .. إنها تلاوين طيف يراودني كل يوم .. فابتسم رغم ما يرشح في أعماقي من نشيج داخلي.. وكلما تسرب إلى حسي شعور بالأمل.. الأمل في أن أخرج من هذا الجحر حيا معافى..

لقد أكلت العلل والأسقام الكثير من الرفاق.. إنهم أخوة المعتقلات والمحن.. سكن السقم جسد الطيب , فتحول إلى خيال باهت بل فزاعة ألم وأشجان.. كلما عاينت صفحة وجهه والمرض الملعون ينهشه يعتريني الألم والحزن ..

أما"با الجيلالي" فقد أصيب بالشلل أصبح مقعدا لكن الشلل النصفي لم يتسرب إلى معنوياته .. ظل شامخا كالجبل رغم الحزن الساكن في مقلتيه, كان ثباته يغريني بالصراخ في وجوه السحالي ذات اللون

الرمادي...

-أيها الملاعين انكم تنتظرون موتنا الواحدة تلو الآخر

يا لها من حفرة إلتهمتني وهيهات أن اغاذرها إلا جثة هامدة

كانت اخر كلمة عالقة في مخيالي من ذكرى با الجيلالي

لحظات استذكار الحب كانت كضمة القبر مؤلمة وموغلة في القتامة.. إستذكار الحب والمرآة داخل العتمةإنه الموت البطيئ أما ذلك الحب القديم فقد تلاشى في قلبي لم أعد اشعر بالحب إنه في حسي يرتبط بالألم والشجن المهيض إنه كالطير المكسور الجناح لايقوى على الحركة أو الطيران بعيدا في الفضاءات الفسيحة..

.

في العتمة لا يعني لي الحب والمشاعر سوى المزيد من الألم والذكريات القاسية إنه يحمل صورة الماضي بما أحدث في أعماقي من الألم وما خيب من رجاء

داخل الأقبية كنت أحيا حياة صماء كالحجارة .. كل يوم أسلخه من السنوات السحيقة في العتمة أحسه كحمل ثقيل من الحجارة ينوء بها كاهلي فان انزاحت عني انزاح عناؤها

ولكن لي همة عالية لاتقبل الارتطام....."

" السجن أشد قسوة من الحجارة.. إنه كالسراب في تلاشيه وتبدده القاسي , بل كالتراب الخصب ينبت الأمل.. اما السجن فانه ينبت الألم. كما ينبت تراب النماء زهرة يانعة..

أمل في الحلم.. الحلم الذي يراودني كل ليلة.. ذلك الطيف ممزوج بحسوة الألم ومسحوق المعاناة

هكذا تساوقت خواطري وقد أصبح الحزن رفيقي

بينما تاوهات الحاج الدكالي المكلومة وغمغماته المحزونة الوئيدة بله زفراته المحمومة.. لم يكن بميسوري أن اتحملها لقد غدت المحنة وظلال الموت شاخصة امام اعيننا ,, يا لبشاعة صورتها

" اليوم فقدت رفيقي في العتمة والسلاح والقمر.. إلتهمه الموت , اصبح الطيب من أسفار ماضينا وأحزاننا"

بعد أن انفض الناس وتفرقوا شذر مذر عانقني الحاج الدكالي بحرارة

قال والحزن باد على محياه بألم ممض جارف كالموت

-كيف ألقى بنفسه في أحضان الموت؟

ما أقساه من سؤال.. إنه اشق على نفسي من منظر القبر وهو يفتح فمه ليبتلع جسد الطيب غير مأسوف عليه..

-" منها خلقناكم وفيها نعيدكم,,"

هكذا ردد عبد الرحمان تلك اللحظة

استطرد الحاج الدكالي بمرارة مضاعفة

قبل أن يرحل قال لي إنني لا أريد أن أموت

ثم أضاف كمن يحادث نفسه من مس أو عارض من الجن

-" لم يكن بطوقي أن أدفع عنك الموت الموت الموت يا ولدي .."

ردد كلمة الموت مرات عديدة وهو في حالة من الشرود اللامتناهي

" الموت مصيرنا كلنا نمضي نحوه. ببطئ وربما بهرولة .. في النهاية سنموت..

-لقد مات ولكنه حي في وجداناتنا ,,"

هكذا غمغمت في سكون الليل

كان الطيب رفيقي في المحنة ابتلعتنا اقبية الظلام.. لسنوات سحيقة سكنت المبادئ سويداء قلوبنا.. كنا نحلم بأن يسقط الصنملكن الصنم أسقطنا في المتاهة..

في العتمة خاض الطيب كافة معاركنا مع الجلاوزة كان صلبا عنيدا . أسدا ..

إنه إنسان بخلايا أسدية وقلب أسد جسور.. هكذا ظل إلى أن سكنت العلل ذلك الجسد النحيل وواصلت زحفها الهادئ لتستقر في قلبه الكبير

بعد أن لفظننا السجن وقد كنا آخر الافواج التي غاذرت البوابة السوداء .. لم يلبث الطيب بيننا إلا قليلا وفاضت روحه إلى بارئها...

بعدم اكتراث قال الحاج الدكالي وهو يحوقل بصوت عال

- ,, فقدت فلدة كبدي ,, إنه أفظع حدث في حياتي .. اهتزت له نفسي طفقت مكسور للجناح,,

ثم استطرد وذهوله باد على محياه

-,,كيف طاوعتني نفسي أن أورايه التراب ..؟؟

-كيف كان إحساسك لو لفظ أنفاسه الأخيرة في المعتقل الأسود , لاريب انه إحساس أكثر فظاعة

هكذا قلت له معزيا .. جحظت عيناه قال والقلق شاخص في حسه

-,, لم أكن اتصور ابدا ان يمر موته دون ان أرى النعش محمولا على الاعناق..,,

ثم ضرب كفا بكف..

– لقد دفنته ونفضت تراب قبره من يدي

ثم لاذ للصمت الجارح

انسحبنا من الجنازة كان عبد الرحمان بمعيتي هو الآخر واحد ممن التهمهم الأقبية في زمن العتمة والجمر والهاجرة...

كان الصمت مهيمنا علينا بقوة

امتد معنا الصمت كامتداد المسافة الشاسعة التي قطعناها ونحن ما بين ضفتي المدينة المترامية الأطراف...

ما أفظع لحظات الفراق .. إن لها مرارة كالحنظل ولكنه منعطف حتمي في حياتنا,, ربما لايطاق ولكنه في النهاية مصيرنا ...

ونحن نهرول للإرتماء في أحضان الموت

في المعتقل كان الموت امامنا ومن ورائنا ومن حولنا .. كان في كل إتجاه .. أينما سرنا نراه..

في الأقبية والعتمة الباهرة والسراديب الموغلة في الفظاعة.. إنه في مرارة حسوة الألم اليومية وفي قساوة ردهات العنابر وحلكة الليل الطويل المملوء بالقيح والقيود والصديد

تذكرت تلك اللحظات صفحة وجه خالد .. كان وجهه يشع ببريق أخاذ غريب كان كمن يكتم بين جوانحه سرا..بدا في عينيه هناك كانت صورة الموت. مرسومة كالوشم في الجسد

نبذته الزنزانة نبذ النواة بعد أن أصبح جثة هامدة.. خاض آخر معاركه وظل صامتا ..

كان يموت كل يوم وهو يتلاشى كقطعة من السكر في كوب ماء بارد

الاضراب عن الطعام الجوع حتى الموت.. يا له من مصير .. الامعاء الفارغة الألم الجوع المرارة القيئ الغثيان السهاد الحيرة الحسرة .. أحاسيس ملآى بالمرارة هي مزيج من الشعور بالهزيمة والخذلان وفقدان الأمل..

كان مصرا على المضي في مغامرته إلى آخر الشوط , إلى الغاية كما كان يردد دائما

فجأة اصبح جثة هامدة.....

ساد الصمت بيننا والدهشة والذهول يا له من يوم عاصف ومشهد مؤلم

تنهدت من أعماقي وخطر لي خاطر جديد ... ليس غريبا عني .. رائحة الموت

تلك الرائحة التي شممت ريحها هناك في أقبية معتقل تمارة السري

غمغمت في شرود عاصف

–آخر المطاف سنثوي في النواويس والحفائر ننتقل من ظلمة الزنزانة إلى ظلمة القبر

تخيلت ذلك المشهد الكئيب والألم يعتصرني الأكف الممزقة بالدم والصديد احسست بمزيد من الإنقباض تلبستني حالة من القلق النفسي

" للمعتقل ضمة كضمات القبور وآهات مرة مرارة الزمن الرديء أهله.. "

ليس بميسوري ان أتحرر من قبضة السجن.. إنه في كل ذرة من وجداني بات السجن معي كظلي , اصبحت سريع الانفعال سريع التأثر كثير المخاوف مسكونا بالريبة والشك , ربما بسوء الظن وعدم الثقة في الناس مستسلما للصمت وللحزن الكئيب والعزلة

أرسلت زفراتي الحرى وأنا أسكب عبراتي في صمت

رحم الله الطيب وخالد وبا الجيلالي والميلودي واقلعي

وكل الراحلين في زمن الجمر والصمت والالم

انتهى ...

السجن المركزي القنيطرة

الإ سفنجـــة

في المعتقلات كنا في تيه بلا غاية ولا أفق ولا هدف أو مصير , ولم يكن لدينا ولا حتى مجرد بصيص أمل في النجاة الداخل للعتمة مفقود والخارج منها مفقود

الاختطاف ... يعني الموت

رائحة الصديد والقيح ولزوجة الدماء ودبقها يهيمن على المكان , للموت رائحة هناك... وللجمرعلامات في حلقات التعذيب.. وهي تمضي على قدم وساق.. لاتنقطع وصلاتها ولايخفت النحيب والنواح والنشيج الممتد المنبعث من كل اتجاه... وآهات مكتومة, بل ربما مخنوقة تعافر من أجل نسمة هواء .. او مجرد لحظة للحياة....

ألا يقول المغاربة

_"الروح عزيزة عند الله"

كم من أرواح أزهق في رهق المكان وقتامته.. هناك حيث الظل والصمت واسراركهف عميق ورائحة القرف....

هناك أزهقت الأرواح أو كادت أن تنتزع .. بعنف وقسوة وقوة واضطهاد

هناك في معتقل تمارة أدركت أننا مجموعة من المحقورين.. أو الغلابة على حد التعبير المصري.. عرفت في حلقات العذابات المرة مغلوبيتنا..وبحبوحة الجحيم الذي يصب فوق رؤوسنا بمقامع من بأس الحديد وقساوة الأكباد وغلظة القلوب....

كنت في تلك الدوامة , أحاول المقاومة.. المهم أن أقاوم لحظة يأس قد تتسرب الى أعماقي أو لحظة سقوط قد تعتريني أو لحظة ضعف قد تسيطر على تفكيري....

انني أقاوم..........

الجسد يكاد أن يتهاوى تحت مطارق الحقد وحفريات الجلاد متواصلة .. النوم الذي حرمت منه طيلة الأسابيع الماضية يكاد أن يجتاحني وبعمق

أحاول المقاومة ولكـــــن....

بعد انتهاء الأسبوع الرابع في معتقل تمارة تهاوى جسدي المكدود لم أعد أجسر على التحدي لقد دمروا جسدي النحيل.. المنهوك...

كانوا يتصايحون فيما بينهم وهم يعيدون تمثيل احدى المشاهد من فيلم قديم عندما كان كفار قريش يعذبون المستضعفين من المسلمين ويضعونهم في دائرة ثم يدورون في حلقة ومهم يصفقون ويرددون كلاما لا تسعفني ذاكرتي على التقاطه من جعبة المأساة..........

اذكر ذلك المشهد في رتابة واشمئزاز...

كانوا يتصايحون وقد وضعوني في تلك الدائرة وهم من حولي يرددون

_"صطـــــيوه...صطـــيوه"

وهم يصفقون ويصفرون....

و"التصطية" عند المغاربة هي الجنون .. لأجل ذلك يقال عن المجنون والمعتوه في العامية المغربية "مصطي" ربما لها علاقة بالصدأ وكأن من فقد عقله اصيب بالصدأ....

انها الهلوسة والهذيان المرير

وربما تكون لها علاقة بالتصدية , مكاء وتصدية وتصفيق وصفير وعذابات مرة وخيالات وهلوسات محمومة

أرى الطفلة دعاء وهي تمشي على رجل واحدة وجنازة والدي.. وبكاء النساء وأشياء مختلطة ببعضها وأرى وجه أمي حزينا وألمح طيف الماضي كالح الرؤية قاتم الملامح...قد أنهكوا قواي صرت كالاسفنجة تضاعفت العذابات.........

لقد لمحتهم وهم يزرعون حبوب الهلوسة في الطعام ويجبرونني على أكله كانوا يمسكون برأسي ويقولون " راسك قاسح" ويرشونه بمادة مجهولة وسرعان ما تنتفخ فروة رأسي وأشعر بصداع رهيب ... وبعدها لا أقوى على تذكر الأشياء .. حقنوا وريدي بشيء ما ... قالوا انها حقنة للتغدية "انت هزيل منهك" ولكنها أحالتني الى ورقة في مهب ريح هوجاء بخريف عاصف.......

أصبحت هشا... لا أقوى على تذكر أي شيء.. كنت أهذي بالكلام طيلة اليوم... اليوم طويل جدااا والنوم هجرني تماما

انني أكاد أن أنفجر..............

يأتي الحاج الكبير وبسمته الصفراءتحتل مكانا مميزا في وجهه فتبدو أسنانه النتنة الفجة ... يقول الحاج متهكما

_"الصلاة الحاج"

أحاول أن أصلب عودي لأقوم للوضوء ... ولكن ما الوضوء , انني لا اذكر هاته التفاصيل اليومية الماء أمامي والدهشة من ورائي ومن حولي

واذا قمت للصلاة لا اتذكر من سورة الفاتحة حرفا.. ذاكرتي واهنة هشة رخوة , عدت صبيا والكلام لا ينقطع انه الهذيان المتواصل والذكريات تختلط ببعضها والبكاء يغلبني والدموع تنهمر وتسيل بغزارة انني في دائرة الهلاك ... سأشرف على الجنون او" التصطية "كما يقول المغاربة...

حينها رأيت الحاج الكبير يربت على كتفي ويعاملني كانسان بعد أن تحولت الى بقايا انسان... قال لي هل تريد شيئا...

_ "هل تشرب كوكا كولا.."؟؟

نظرت اليه مليا وقلت" له أريد مصحفا"

قال ممنوع لا يمسه الا المطهرون وانتم انجاس

ماذا تريد من المصحف " أنا احفظه عن ظهر قلب وليس مثلكم أيها المنافقون"

_ أريد أن أقرأ سورة"ق"

فغر فمه وقال" لا أذكرها الآن"

_ قاف ... قاف ... قاف...

لا اذكر منها شيئا

ثم أهوي جاثيا على ركبتي...

انقلبت الموازين في زمن رديء فاقد للمعاني فاقد للأمان

صرت اسفنجة بين أيديهم العفة .. انني لا أقوى على شيء

انني على مشارف الانهيار..........

عقلي يكاد ينفجر من قوة الصداع الرهيب.. أو هكذا يخيل لي الأصوات تنبعث من كل مكان سمعت صوت أمي .. نعم أنه صوتها ولكنها ماتت من سنوات سحيقة من أعادها للحياة انني اسمع صوتها وألمح طيفها هنا في تمارة... وأصوات الأطفال علاء وبلال أبناء شقيقتي.. أصواتهم تلاحقني وبكاء بدر الصغير يشق دماغي.. ودعاء تبكي بمرارة.. انني على مشارف" التصطية "، أو الجنون

ولا شيء غير الجنون اللامتناهي.......

هاجس ينتابني بقوة يحدثني بهلوسات قوية انني في الجحيم نعم الجحيم... تجربة أليمة وموجعة ومخزية وعفنة

الاسفنجة هي مرحلة من تدمير الضحية لاعادة تشكيله وفق هوى الجلاد , انها طريقة أخرى لانتزاع الاعترافات بغسيل الدماغ
وسيلة قذرة وموغلة في الاسفاف

السجن المحلي سلا

عنبر الموت ميم

المحتويات

كلمة عن المجموعة القصصية بقلم ياسر السري

كلمة المؤلف

المجموعة

ملح الأرض

الأطياف الثلاثة

الأطياف الهائمة

جدي الحاج أحمد ابو زيان

الأكف الممزقة

الإسفنجة

إن كلماتنا ستبقى ميتة أعراساً من الشموع
لا حراك فيها جامدة . حتى إذا متنا من أجلها
انتفضت حية وعاشت بين الأحياء
كل كلمة عاشت كانت قد اقتاتت قلب إنسان حي
فعاشت بين الأحياء
والأحياء لا يتبنون الأموات